إقليم ناغورنوكاراباخ... بين الإرث التاريخي القوقازي والحسابات الإقليمية التركية- الإيرانية

جلال خشيب*

ملخص: تسعى هذه الدراسة إلى تتبع المسار التاريخي والأسباب المركبة لأحد أبرز وأطول نزاعات منطقة القوقاز؛ نزاع ناغورنوكاراباخ بين الجارتين أذربيجان وأرمينيا الذّي لا يزال قائماً إلى اليوم؛ نزاع إقليمي لم تنجح فيه الحلول الدبلوماسية، لذلك ولفهم أسباب هذا النزاع ومسوّغاته توفّر الدراسة لمحة عامة عن إقليم النزاع، ثمّ تنطلق إلى متابعة جذوره التاريخية الأولى، وأسباب انفجاره واستمراره، وأهم محطاته الحاسمة التّي كانت منعرجًا في مساره من انتفاضات وحروب واتفاقات- حتّى تتضح لنا أسبابه، ثم تنتهي الدراسة بتقديم قراءة مختصرة عن الأبعاد الإقليمية للنزاع، وبالأخص تلك المتعلقة بالتنافس التركي-الإيراني في المنطقة، وحسابات ومصالح كل طرف في إدارة هذا النزاع، وأثر هذا التفاعل الإقليمي في مسار النزاع ومصيره المستقبلي.

* جامعة مرمرة، تركيا.

Turkish-Iranian Regional Competition on the region of Nagorno-Karabakh

JALAL KHOSHIB*

ABSTRACT: This study seeks to follow the historical path and the complex causes of one of the most prominent and longest conflicts in the Caucasus region, Nagorno-Karabakh conflict between Armenia and Azerbaijan. Currently the conflict has taken a regional dimension and became one of a regional bargaining agenda. The study provides an overview of the dispute territory, and focuses in its causes in order to clarify the complexity of this conflict. At the end the study provides a brief reading of the regional dimensions of this conflict, especially those related to the Turkish-Iranian rivalry in the region, calculations and interests of each side in the management of this conflict, and its impact on the conflict process and its future.

* University of Marmara, Turkey.

رؤية تركية
2016 (5/2)
193 - 171

مقدمة

يمثل النزاع الأرميني الأذربيجاني حول إقليم ناغورنوكاراباخ أحد النزاعات المعقدة التّي تتداخل فيها الأبعاد العرقية والدينية، فضلًا عن ميراث تاريخي من العنف والصدام، وخطورة هذا النوع من النزاعات تتمثّل في تلاقيه مع نزاعات أخرى في مناطق مختلفة قريبة، على نحو يُفضي إلى زيادة حدّة هذه النزاعات، بل ويغذّي التنافس بين القوى الإقليمية والدولية التّي تعمل على تأكيد دورها من خلال هذه النزاعات، وهذا يحوّل منطقة النزاع إلى بؤرة من بؤر التنافس بين هذه القوى، على نحو يزيد من أمد النزاع ويغذّيه. ويوفّر لنا التاريخ السياسي للمنطقة مادة ثرية تمكّننا من فهم التطورات الكبرى التّي مرّ بها هذا الإقليم. ومن خلال تحرّي المقولات المختلفة التّي تسوقها أطراف النزاع -التّي تصل إلى حدّ التضارب في كثير من الأحيان- سنتمكن في النهاية من فهم المنطق الذّي تتحرك انطلاقًا منه هذه الأطراف: رؤيتها، وأهدافها، وإستراتيجياتها المتبناة، فضلًا عن بناء تصوّر شامل للأسباب المحرّكة لهذا النزاع المستمر في التاريخ، خلافًا لكثير من النزاعات في العالم التي انتهت بانتهاء ظروف الحقبة التاريخية التّي نشأت فيها.

كلمة ناغورني كلمة روسية تعني مرتفعات، وتعني في الوقت نفسه جبال، أما كلمة "كاراباخ" أو "قره باغ" فتعني "الحديقة السوداء"؛ أي ترجمة "ناغورني قره باغ" هي مرتفعات الحديقة السوداء، ويطلق عليها الأرمن الذين يعيشون في الإقليم اسم "آرتساخ"

عن إقليم ناغورنوكاراباخ

يقع إقليم ناغورنوكاراباخ المتنازع عليه بالكامل داخل أراضي جمهورية أذربيجان، في سلسلة جبلية تعرف بالاسم نفسه [1]، فهو إذن أحد أقاليم أذربيجان، وعاصمته ساباناكيرث، نسبة إلى الزعيم البلشفي الأرميني سيبان شاهوميان. يقع الإقليم غرب العاصمة الأذرية باكو بنحو 270كلم، وتبلغ مساحته حوالي 4800 كلم[2].

وكلمة ناغورني كلمة روسية تعني مرتفعات، وتعني في الوقت نفسه جبال، أما كلمة "كاراباخ" أو "قره باغ" فتعني "الحديقة السوداء"؛ أي ترجمة "ناغورني قره باغ" هي مرتفعات الحديقة السوداء، ويطلق عليها الأرمن الذين يعيشون في الإقليم اسم "آرتساخ"، وهي كلمة مكونة من مقطعين: الأول "آر" نسبة إلى "آرا" إله الشمس عند الأرمن القدماء، و"تساخ" التي تعني غابة أو كرْمة، وبذلك تعني كلمة "آرتساخ" "غابة" أو "كرمة الإله آرا". أمّا الأذريون فيسمونها يوخاري قره باغ، أي قره باغ العليا بالمعنى الحرفي للكلمة.

يبلغ عدد سكان ناغورنوكاراباخ 145 ألف نسمة: 95٪ منهم أرمن، و5٪ الباقية من أعراق أخرى. ونظرًا إلى موقع ناغورنوكاراباخ وكونه نقطة التقاء بين الإمبراطوريات:

العثمانية والفارسية والروسية، فقد شهد هذا الإقليم عددًا كبيرًا من الحروب والتنقلات، وعمليات هجرة ونزوح بين السكان، لذا فليس مستغربًا في التاريخ الديموغرافي للإقليم أن تكون إحدى الجماعات العرقية أو الشعوب في قرن من القرون أغلبية وفي قرن آخر أقلية.

يعمل الناتو على احتواء دول القوقاز الثلاث ضمن برنامج "الشراكة لأجل السلام" (في سياق تضييقه الجيوبوليتيكي على البر الأوراسي). كما عرض عليها الاتحاد الأوربي إمكانية العضوية ضمن برنامج سياسة الجوار الأوربية "لأجل تقاسم السلام والاستقرار والازدهار التي يتمتع بها الاتحاد الأوربي مع دول المنطقة" في تماشي جيواقتصادي مع الإستراتيجية الأطلسية تجاه روسيا أيضًا

والإقليم فقير بموارده، فهو يعتمد على الزراعة التّي يعمل بها أغلب سكانه، كما يعتمد على تصنيع بعض الأغذية، وبعض الصناعات الخفيفة.[2] لذلك تكمن أهميته في التموضع الجيوبوليتيكي وكذلك العسكري الذّي يحظى به، ولاسيّما بالنسبة لأطراف النزاع: المحلية (أرمينيا وأذربيجان)، والإقليمية، ومنها (روسيا، وإيران، وتركيا)، فالإقليم يعدّ قاعدة عسكرية متقدمة بالمفهوم الأمني الصلب بالنسبة للطرفين المباشرين أرمينيا وأذربيجان، وساحة عمليات أيضًا بالنسبة للداعمين الإقليميين في أثناء الحرب، وكذا ورقة تساوم ديبلوماسي في علاقات هذه الجهات الفواعل أيّام السلم. كما أنّ إلقاء نظرة عابرة إلى الموقع الذّي يتبوّأه أصحاب المصالح في هذا النزاع كفيل بفهم الأسباب التّي أبقته أحد أكثر النزاعات استعصاءً على الحل إلى الآن، فالسبب في ذلك يعود أيضًا إلى حجم الموارد الطبيعية التّي تحوزها أذربيجان، والأهمية الجيوبوليتيكية لمنطقة القوقاز عمومًا، التّي تتوسط كلًّا من روسيا "الشرق الأوسط" وآسيا الوسطى، وهو ما يجعل الإقليم جذابًا لكل القوى الخارجية المؤثرة: الإقليمية منها والدولية، فللناتو والولايات المتحدة أيضًا اهتمام إستراتيجي شديد بهذه المنطقة، إذ يعمل الناتو على احتواء دول القوقاز الثلاث ضمن برنامج "الشراكة لأجل السلام" (في سياق تضييقه الجيوبوليتيكي على البر الأوراسي)، كما عرض عليها الاتحاد الأوربي إمكانية العضوية ضمن برنامج سياسة الجوار الأوربية "لأجل تقاسم السلام والاستقرار والازدهار التي يتمتع بها الاتحاد الأوربي مع دول المنطقة" في تماشي جيواقتصادي مع الإستراتيجية الأطلسية تجاه روسيا أيضًا. وتنشط في القوقاز كذلك جملة من الشركات النفطية الأجنبية التّي تهدف إلى استثمار موارد الطاقة في أذربيجان، خصوصًا (المطلة على بحر قزوين أحد خزّانات الطاقة العالمية)، على غرار بريتيش بيتروليوم أو غيرها من الشركات الأمريكية، والإيطالية، واليابانية، والتركية، وحتّى الجورجية، وكلها ترجو إقليمًا مستقرًّا من الناحية الأمنية بحيث يساعده الاستقرار على تسريع مشروعاتها هناك، كما تساعد الدول في حماية مشروعات خطوط الأنابيب المارة عبر الإقليم واستقلاليتها عن أي ضغوط قد تمارسها "أطراف معادية".[3]

كل ذلك يُعلي من أهمية منطقة النزاع، ويثير حولها اختلافًا بين وجهات نظر المؤرخين والمهتمين، نظرًا لتعقد ملفاتها وفواعلها، لذا منهم من رأى أنّ النزاع:

- صراع عرقي.
- تنافس جيوبوليتيكي لا يشمل الأرمينيين والأذريين وحدهم، بل يتعداهم إلى الأتراك والروس والإيرانيين والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوربي.

استمرار لعداء تاريخي محمّل بإرث كبير من الكراهية الدفينة بين الأرمن وكل من الأذريين والأتراك.[4]

الجذور التاريخية للنزاع

تورد المصادر الأرمينية والأذربيجانية معلومات متناقضة حول حقوقها التاريخية في إقليم ناغورنوكاراباخ، فالأرمن يرون أنّ هذا الإقليم قد خضع لأرمينيا منذ القرن 8 ق.م، حيث كانت المنطقة تسمى في حينها أورتيغا، ومن هذه التسمية اشتق الاسم الأرميني للمقاطعة "آرتساخ"[5]

وتُعَدّ كاراباخ جزءًا من تاريخ أرمينيا منذ العصور القديمة، بحسب ما ترى المراجع الأرمنية، وقد سكن الأرمن الإقليم منذ أكثر من 3000 عام، وهذا ما تدّل عليه النصوص الأثرية الموجودة في متحف الإقليم في مدينة إستيباناكيرد، فالإقليم يمثّل بالنسبة للأرمن مهدًا للحضارة الأرمينية[6]، إذ وردت التسمية القديمة لقره باغ "آرتساخ" في مخطوطات قيصر "أورارتو ساردور الثاني" 763–734 ق.م، وكان إقليم آرتساخ يدخل ضمن دولة ميديا، ثمّ احتله في الفترة ما بين 180 . 160ق.م مؤسس مملكة أرمينيا الكبرى أرتاشيكس الأول، ثمّ أسس القديس جورجيوس منور عموم أرمينيا في آرتساخ دير "أماراس" بصفته مركزًا مهمًا للحياة الثقافية والدينية الأرمينية[7]. وتشير المخطوطات إلى أنّ المسيحية بشرت في الإقليم في القرنين الرابع والخامس للميلاد[8]، أمّا في الفترة ما بين القرنين العاشر والثامن عشر الميلاديين فقد عرفت المنطقة باسم خاتشن، "وهي كلمة مقتبسة من الكلمة الأرمينية (خاتش) التي تعني "الصليب"، إلى جانب تسميات أخرى للمنطقة، مثل أرمينيا الصغرى، وسيونيك الصغرى، فضلًا عن الكنائس والآثار التي خلفها الأرمن في هذه المنطقة.[9]

في القرن الثامن للميلاد وصلت موجات الفتح الإسلامي إلى المنطقة، وفي القرن الثالث عشر تعرّضت المنطقة إلى هجمات المغول الذين أطلقوا عليها اسم كاراباغ.

ويورد الأذريون في معرض ردّهم على الادعاءات الأرمنية بأنّ الكنائس التّي أقيمت هناك (قبل الفتح الإسلامي) أقامها الألبان المسيحيون في المنطقة، ولا دخل للأرمن فيها، حيث يشيرون إلى أنّ خان قره باخ كان قد أقام دولة فيها تمتد بين نهري كورا وآراكس، دامت من

1747–1822 وألحقت بالإمبراطورية الروسية مع سائر المناطق الأذرية إثر الحرب الطويلة بين الفرس والأتراك، كما يرى الأذريون أنّ روسيا سمحت للأرمن بالانتقال إلى هذه المناطق لتعزيز الطائفة المسيحية في الجناح الجنوبي من الإمبراطورية والتصدي لنفوذ الدولة العثمانية هناك.[10]

ومع مرور الزمن تحوّلت المنطقة إلى مسرح للصراع بين الدولتين العثمانية والفارسية، وذلك في فترة الحروب العثمانية الفارسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وفي هذه الفترة عرف الأرمن في هذا الإقليم أول استقلال حقيقي لهم، بقيادة زعيم هذا الإقليم دافيد بك الكاراباخي في الفترة 1722–1730 الذّي تمكّن من عقد معاهدات تحالف ودفاع مشترك مع روسيا القيصرية ضدّ العثمانيين سنة 1724م، كما تحالف مع الفرس ضدّ العثمانيين، إلاّ أنّ هذا الاستقلال لم يدم طويلًا، ففي عام 1730م قضت عليه الدولة العثمانية في أثناء حملتها ضدّ الفرس.[11]

وفي عامي "1795–1797" اعتدى الشاه الإيراني آغا محمد شاه على قره باخ، لكنّه أخفق في فرض سيطرته عليها، واضطر إلى الانسحاب بجيشه، لكنّ الحرب مع الفرس لم تتوقف، فتوّجه إبراهيم خان "قائد قره باخ" إلى روسيا، طالبًا دعمها ضدّ الفرس، ووقّع معها اتفاقية سنة 1805م،[12] وظلّت هذه المنطقة مسرحًا للحملات الفارسية والعثمانية حتّى الحرب الروسية الفارسية الثالثة عام 1826م، وبعد خسارة إيران لهذه الحرب، تنازلت عن سيادتها على كل من أرمينيا الشرقية وجورجيا ومنطقة أذربيجان لصالح روسيا.[13]

وفي عهد السيطرة الروسية ربط الروس في أثناء إيجادهم للإقليم الجديد السيبافيتبول مرتفعات كاراباخ الغربية بسهولها الشرقية، حيث كان أغلبية السكان أذريين، كما وفّر الروس شبكة اتصالات، وطوّروا اقتصاد لكلتا المنطقتين لربطهما معًا، ليصبح معها ناغورنوكاراباخ بشكل تدريجي جزءًا لا يتجزأ من النظام الاقتصادي الشرقي لجنوب القوقاز.[14]

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى ظلّت المنطقة تحت السيطرة الروسية طول الفترة الممتدة ما بين 1914 حتى 1917م، أي حتّى قيام الثورة البلشفية في أكتوبر 1917م، واستجابة لأوامر لينين انسحب الجيش الروسي من كل جبهات القتال بما في ذلك جبهة القوقاز، بغية حماية الثورة من الداخل، ممّا أوجد فراغًا في هذه الجبهة سعت بريطانيا إلى ملأه فورًا؛ حماية لآبار النفط في باكو وما حولها، إلا أن القوات العثمانية –مع حلفائها الألمان– كان لها السيطرة على أرض الواقع، حيث تمكنت من بسط السيطرة على باكو، وبعدها صار إقليم ما وراء القوقاز كله في قبضة الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا، إلاّ أنّ هزائم دول المحور دفع بالدولة العثمانية –بعد توقيعها معاهدة مودروس 1918م– تحت الضغط البريطاني إلى الانسحاب من منطقة القوقاز.[15] ، ليعود لبريطانيا النفوذ في تلك المنطقة، ونتيجة للأوضاع الاقتصادية والإستراتيجية لبريطانيا –المرتبطة بنفط باكو– انتهجت سياسة موالية لأذربيجان، وزودتها بالدعم اللازم لإلحاق ناغورنوكاراباخ بها على حساب الأرمن.

بعد انحسار الدور البريطاني في القوقاز بزغ تحالف سوفياتي–تركي "كمالي"، تبوأت معه كاراباخ بُعدًا إستراتيجيًا في علاقاتها مع القوتين، وأدّى التعايش السلمي مع الزعيم التركي "كمال أتاتورك" إلى ترجيح عودة موسكو إلى جنوب القوقاز ثانية، فما كادت سنة 1920 تنقضي حتّى أصبحت دول جنوب القوقاز الثلاث جمهوريات اشتراكية سوفياتية، وتحوّل معها ناغورنوكاراباخ من نزاع بين دولتين إلى مسألة داخلية للاتحاد السوفياتي.[16]

كانت سياسة ستالين تقوم على بثّ الفرقة بين الجماعات العرقية داخل جمهوريات الاتحاد السوفياتي لتظل تلك الأعراق بحاجة دائمة إلى حماية الحكومة المركزية في موسكو، ولأنّ أذربيجان وأرمينيا كانتا جمهوريتين تابعتين للاتحاد السوفياتي، فقد أقدم ستالين على ضمّ إقليم ناغورنوكاراباخ إداريًا إلى أرمينيا رغم أنّه يقع في قلب أذربيجان، في المقابل فقد ضمّ ستالين إداريًا منطقة ناختشيفان التّي تقع جغرافيًا في قلب أرمينيا وتسكنها غالبية أذرية إلى أذربيجان، وبهذا بدأ الصراع في ناغوركاراباخ في شكله الحالي.[17]

وقد تمكن في الوقت ذاته المركز السوفياتي من وقف الحرب القومية التّي بدأت بين أرمينيا وأذربيجان في عام 1918، وانتهت بفرض الوفاق القومي بالقوة. ومنذ عام 1921 استندت وضعية إقليم ناغورنوكاراباخ إلى معاهدة موسكو الموقعة بين لينين وأتاتورك، وقد نصّت المعاهدة على اعتراف تركيا بالسلطة السوفياتية على إقليم كاراباخ وسيادة أذربيجان عليه، على أن يتمتع الإقليم بالحكم الذاتي.

وطوال الحقبة السوفياتية تمسك الأذريون بالمادة "78" من الدستور السوفياتي التّي تحظر نقل أي جزء من أيّة جمهورية إلى جمهورية أخرى من دون موافقة الطرفين، للتعبير عن رفضهم التخلي عن الإقليم، في حين تسلح الأرمن بالمادة "70" من الدستور نفسه التّي تدعو إلى حق تقرير المصير بحرية لجميع الأمم، في سعيهم لضمّ إقليم ناغورنوكاراباخ إلى أرمينيا.

مع مجيء غورباتشوف إلى الحكم في الاتحاد السوفياتي في منتصف عقد الثمانينيات -في ظل مناخ البريسترويكا والغلاسنوست- بدأت قبضة الكرملين على الجماعات العرقية تخف شيئًا فشيئًا، وسرعان ما طفت على السطح مشكلة كاراباخ

وحتّى وفاة ستالين لم يسمح للأرمن بالشكوى ممّا يعانون منه في إقليم كاراباخ من مشكلات، مثل التدهور الاقتصادي، ففرض اللغة الأرمنية في التعليم والمعاملات، إلا أنّه مع نهاية الحقبة الستالينية عام 1956م، بدأت عدة قوميات -ومنها الأرمن- تطالب بتقرير مصيرها، وبدأ الأرمن المقيمون في ناغورنوكاراباخ يدافعون عن ارتباطهم بأرمينيا.[18]

وطوال الفترة الممتدة من مرحلة ما بعد ستالين وصولًا إلى برويسترويكا غورباتشوف لم يتوان أرمن كاراباخ بمفكريهم وأدبائهم عن إرسال المذكرات إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لإعادة النظر في موضوع كاراباخ وإلحاقه بأرمينيا السوفياتية، بالإضافة إلى برقيات الاستفسار المرسلة إلى السلطات الأذرية مستفسرة عن الاضطهادات التّي يخضع لها الأرمن في الإقليم، وكانت النتيجة سلبية بالنسبة للأرمينيين، حيث يدعي الأرمن أنّهم جوبهوا بردود عنيفة وضغط اقتصادي أذري من جهة، واغتيالات سوفياتية من جهة أخرى، وقمع لأيّة حركة تحرّر كانوا ينشدونها، وهذا ولّد ضغطًا وانتفاضة أرمينية لاحت ملامحها مع بدايات سنة 1988.[19]

انتفاضة الأرمن وانفجار النزاع

مع مجيء غورباتشوف إلى الحكم في الاتحاد السوفياتي في منتصف عقد الثمانينيات -في ظل مناخ البريسترويكا والغلاسنوست- بدأت قبضة الكرملين على الجماعات العرقية تخف شيئًا فشيئًا، وسرعان ما طفت على السطح مشكلة كاراباخ، ففي بداية عام 1988 تقدّم أرمن كاراباخ بعريضة إلى غورباتشوف وقعها ما يربو على 75 ألف منهم، طالبوه من خلالها بعودة إقليم ناغورنوكاراباخ إلى الوطن الأم أرمينيا، ونتيجة لرفض موسكو هذه المطالب، اندلعت المظاهرات -بدءًا من 11 فبراير 1988م- في عاصمة كاراباخ ستباناكرت[20]، كما خرج حينها أيضًا عشرات الآلاف من الأرمن في مظاهرات حاشدة في العاصمة الأرمينية يريفان يطلبون دعمًا رسميًّا من قيادات السوفيات لاستقلال ذاتي لإقليم ناغورنوكاراباخ، دلالة منهم على

الهيمنة الأرمنية السكانية في ذلك القسم من الجمهورية الاشتراكية السوفياتية الأرمينية، لكن الاتحاد السوفياتي رفض ذلك الطلب، بل وفرض حكمًا مباشرًا هناك، في محاولة منه لاحتواء درجة القتال المتقطع الذّي أدّى إلى فرار عدد كبير من الأذريين من الإقليم قُدِّر عددهم بنحو 40 ألف شخص.[21]

وفي 20 فبراير اتخذ مجلس النواب الشعبي في مقاطعة كاراباخ ذات الحكم الذاتي قرارًا يطالب بدمج المقاطعة مع أرمينيا، وهذا أثار الغضب لدى الأذريين، كما انسحب النواب الأذريون من المجلس احتجاجًا، وصار السكان الأذريون المحليون يتجمهرون لفرض النظام في كاراباخ، فوقعت اشتباكات بين الأرمن والأذريين، واستمرت الاضطرابات ثلاثة أيام أوقعت عشرات الضحايا من الجهتين، وانتقلت أعمال العنف بين الطرفين إلى كل من أذربيجان وأرمينيا، تسبّب في حدوث حملات التهجير المتبادلة قدرت بـ: 700 ألف شخص.[22]

وفي 23 آذار/ مارس 1988 تبنى مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفياتي قرارًا يدين الموقف الأرميني إدانة عنيفة، وجرى التعامل مع لجنة كاراباخ –إحدى الحركات الأرمينية الأساسية– باعتبارها منظمة خطرة تزرع الفوضى، وإزاء ذلك راحت اللجنة تدعو إلى تنظيم مقاومة سلبية ضدّ موسكو، حيث بدأ الأرمن يشعرون أنّ الاتحاد السوفياتي لم يعد يؤدي دوره التقليدي في حمايتهم من الأتراك، لذلك فلم يعد ثمّة أسباب تستوجب قبول الأرمن بمساوئ الإذعان للاتحاد السوفياتي، وتحولت أرمينيا فجأة من دولة مطيعة إلى أعتاب دولة تطالب بالاستقلال.

وعلى الصعيد الأذربيجاني نجد أنّ الأذريين كانوا أيضًا يشعرون بالاستياء إزاء موقف موسكو من مسألة كاراباخ، إذ عدّوا تدخل موسكو لحماية الحقوق الثقافية لأرمن كاراباخ يشكل مساسًا بسيادة أذربيجان، المنصوص عليها في الدستور، كما بدأ الأذريون يفسرون هذا التدخل على أنّه بمثابة تعبير عن التضامن الثقافي القائم بين الروس والأرمن، الذّي يتمحور حول انتماء الفريقين إلى المسيحية، لذلك اتجه الأذريون إلى إنشاء جبهة شعبية –في تشرين الثاني / نوفمبر 1988– تتبنى قضاياهم القومية، ولعل أخطر ما جاء في برنامج هذه الجبهة هو فتح ملف العلاقات بين أذربيجان السوفياتية وأذربيجان الإيرانية، ويتعين التنويه إلى أنّ الأذريين يقطنون منطقة إيرانية تقع على الحدود مع أذربيجان، ويبلغ عددهم في تلك المنطقة حوالي 11 مليون شخص، وقد وضّحت الجبهة الشعبية ضمن برنامجها كذلك المطالبة بفتح الحدود بين أذربيجان وإيران، بغية السماح بتنمية العلاقات بين أذربيجاني أذربيجان وأبناء نحلتهم في إيران، وهكذا فقد انبعث حلم قيام أذربيجان الكبرى الموحدة، ذلك الحلم الذي طالما أزعج لينين وستالين.[23]

وجملة القول أنّ موقف موسكو أثار استياء كل من الأرمن والأذريين، وبالرغم من محاولة غورباتشوف إيجاد حلّ يرضي الطرفين إلاّ أنّه أخفق في ذلك، ووجد الاتحاد السوفياتي في آخر أيامه نفسه عاجزًا عن إيجاد أو فرض حلّ أو حتّى التحكم في مجرى النزاع.

وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي، أعلن أرمن كاراباخ انفصالهم الكامل، وشكلوا "جمهورية كاراباخ الجبلية"، التّي أرادوا أن تعترف بها الدول الأخرى بما فيها أرمينيا نفسها رغم أنّ البرلمان الأرميني كان أقر في العام 1989 ضرورة قيام اتحاد بين الكيانين.

كان قيام الدول المستقلة عن الاتحاد السوفياتي يعني تأسيس جيوش لها، وبالاتفاق مع موسكو، جرى تسليم عدد كبير من أسلحة الجيش الرابع المرابط في أذربيجان، والجيش السابع في أرمينيا إلى الدولتين، وهكذا دخلت الحرب في كاراباخ طورًا جديدًا، وأصبحت عمليًّا بين دولتين مسلحتين، رغم إصرار الأرمن على أنّ قوات الدفاع الكاراباخي هي وحدها التي تقاتل.[24]

حرب كاراباخ 1992-1994

تبع انهيار الاتحاد السوفياتي نهاية سنة 1991 انسحاب القوات العسكرية الروسية من أذربيجان، وعلى إثرها نجحت القوات الأرمنية جنبًا إلى جنب مع قوات الدفاع الكاراباخية في ترسيخ السيطرة على الإقليم المنفصل، والتّي أعلنت رسميًّا استقلالها عن الاتحاد السوفياتي إثر استفتاء أجري شهر كانون الأول 1991. احتلت هذه القوات بين سنتي 1992-1993 سبع مقاطعات من أذربيجان المجاورة لناغورنو كاراباخ، كما فرّ سكان أذربيجان من هناك أيضًا.[25]

تمكن أرمن كاراباخ من إحراز نجاحات مهمة عند بداية الحرب، حيث استولوا في **فبراير** 1992 على مدينة حجلي "خوجالي"، ووقعت هناك مذبحة حجلي التّي وصفتها منظمة هيومن رايتس بأكبر مذبحة في تاريخ النزاع "480 شخصًا" حسب الجانب الأذري، وقد أحدثت انتصارات الأرمن أزمة سياسية داخل أذربيجان، كما تمكن الأرمن من السيطرة على مدينة شوشا في 8-9 مايو، وباتت أراضي كاراباخ كلّها تحت سيطرة الأرمن[26]، وقد شكّل احتلال مدينة شوشا الخطوة الأولى في تحقيق نظرية "الطوق الأمني" التّي بدأوا في انتهاجها عبر مرحلتين:

أولاً: إحاطة المناطق الأرمينية في كاراباخ بمدى أمني خال من أي وجود أذري.

ثانياً: إحاطة إقليم كاراباخ كلّه بمدى أمني مماثل، وهو ما سيدفع الأرمن لاحقًا إلى احتلال جزء من الأراضي الأذرية، وإحلال سكان أرمينيين محلهم.

كما شهدت هذه المرحلة تحولًا ثانيًا في التكتيك الأرميني إزاء تأمين المدى الحيوي لكاراباخ، فالإقليم المُحاط من كل جوانبه بالأرض الأذرية، كان من وجهة النظر العسكرية

منطقة يصعب الدفاع عنها على المدى البعيد؛ لافتقارها إلى طرق الإمدادات وإلى العمق الإستراتيجي اللازم للمناورة العسكرية، ولذا كان الهدف التالي للهجوم الأرميني تأمين هذا المجال الحيوي، من خلال ربط كاراباخ بأرمينيا والسيطرة على الأراضي الأذرية الواقعة بين الإقليم والحدود الأرمينية، وفعلًا تحقق هذا الهدف، باحتلال ممر لاشين في 20 مايو 1992 الذّي شكل احتلاله نصرًا إستراتيجيًّا للأرمن.[27]

غير أنّ الحكومة الأذرية الجديدة قرّرت استعادة كاراباخ مهما كانت الظروف، وقد جلب لهم تقسيم أسلحة الجيش السوفياتي "المنتهي" كميات كبيرة من الأسلحة، وهو ما ضمن لهم التفوق على الأرمن. وفاجأ الأذريون الأرمن يوم 12 يونيو بهجومهم في الاتجاه الشمالي، واستولوا على المنطقة الشمالية لكاراباخ، خلال عدّة أيام، وفي أوائل أيلول/ سبتمبر انتقل ثلث أراضي جمهورية كاراباخ إلى سيطرة أذربيجان. وفي 15 يناير/ كانون الثاني 1993 بدأت أذربيجان هجومًا جديدًا إلاّ أنّه أخفق، بسبب نقل أرمينيا جزءًا كبيرًا من الأسلحة إلى كاراباخ، حيث بلغ تعداد القوات الأرمينية في كاراباخ 18 ألف جندي، بينهم 12 ألف جندي من أهالي كاراباخ، بحوزتهم 100 دبابة و190 عربة قتالية، وكان هذا الإخفاق مقدمة لهزائم الجيش الأذري.[28]

خريطة رقم1: النزاع الكراباخي

في يوليو 1993 صعّد الأرمن حدّة معاركهم حتّى سيطروا على الوضع العسكري، وزادوا في تقدمهم، وهدّدوا العديد من المدن الأذرية نفسها – كالسيطرة على كالبادجار في 2 أبريل 1993 ومدينة أغدام الإستراتيجية في 29 يوليو 1993 – مستفيدين من الأزمة السياسية التّي

عصفت بحكومة باكو، ولم ينقض شهر **يوليو** 1993 إلاّ وأرمن كاراباخ يسيطرون على 17 ٪من الأراضي الأذرية.[29]

وبهذا امتلك الأرمن أوراقًا قوية ضاغطة على أذربيجان في أيّة مفاوضات لاحقة، خاصة فيما يتعلق بمقايضة الأراضي الأذرية المحتلة بتنازلات سياسية أذرية في كاراباخ، وكان من المفترض أن توافق أذربيجان بعد هذه الكارثة على شروط الصلح التي يفرضها عليهم الأرمن، غير أنّ الأحداث بيّنت أنّ الأرمن ليس بمقدورهم تطوير النجاح، فأقيم التوازن في القوى[30]، وفي شهر **مايو** 1994 وُقّعت اتفاقية إطلاق النار بمدينة بيشكيك القرغيزية التّي أنهت أعمال عدائية واسعة النطاق، إلاّ أنّها لم تمنع عمليات تبادل إطلاق النيران المستمرة بين الطرفين على طول خط التماس الشرقي لناغورنو كاراباخ الذّي يفصل بين القوات الأرمينية والأذرية المنتشرة هناك، هذه المفاوضات انطلقت سنة 1992 من خلال جهود وساطة مثلّتها "مجموعة مينسك" التابعة لمجلس الأمن والتعاون الأوربي (التي سُمّيت سنة 1994 بمنظمة الأمن والتنمية في أوروبا)، إلاّ أنّ هذه المجموعة أثبتت إخفاقها في التوصل إلى حل سياسي نهائي لهذا النزاع.[31]

النزاع الكاراباخي من النزاعات المعقدة التّي لا تشمل أصحابها فحسب، بل تتعداهم إلى أطراف أخرى تُلقي بثقلها ومصالحها على النزاع، فتزيده تعقيدًا وتمدّ من عمره

الأبعاد الإقليمية للنزاع: الحسابات التركية-الإيرانية

يُعَدّ النزاع الكاراباخي من النزاعات المعقدة التّي لا تشمل أصحابها فحسب، بل تتعداهم إلى أطراف أخرى تُلقي بثقلها ومصالحها على النزاع، فتزيده تعقيدًا وتمدّ من عمره، وفي هذا العنصر سنحاول –بشيء من الاختصار– شرح الموقفين التركي والإيراني من النزاع الكاراباخي، متسائلين عن حدود الدور المحوري الذّي يمارسه الطرفان في مسار النزاع ومصيره.

الحسابات التركية

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي سنة 1991، بدأت تركيا فورًا تعزيز علاقاتها مع كل الأطراف ذات الأصول التركية في المنطقة، مثل (أذربيجان، وكازاخستان، وقرغيزستان، وتركمانستان، وأوزبكستان). لكن كان تفاعلها مع أذربيجان إلى حدّ بعيد الأكثر قربًا، انطلاقًا من الإدراك المشترك بين الأتراك والأذر أنّهما يشكّلان دولتين، ولكنهما شعب واحد".[32]

كان لنهاية الحرب الباردة آثار متعددة على تركيا أيضًا. فمن جهة اكتسبت أنقرة أسواقًا جديدة، كما عرضت نفسها نموذجًا يُحتذى به لمثل هذه الجمهوريات المسلمة الوليدة عقب نهاية الحرب الباردة، ومن جهة أخرى تسبب تفكك الاتحاد السوفياتي في جعل الجوار التركي أقلّ أمنًا، ولاسيّما أنّ أنقرة منذ فترة قصيرة فقط ظلّت بمثابة الحدود الجنوبية الآمنة للغرب. في

هذا السياق الإقليمي لتركيا اندلع نزاع ناغورنو كاراباخ إلى جانب نزاعات أخرى في المنطقة، كلّها جعلت الأمن القومي التركي مهدّدًا وأقل أمانًا. في البداية أخذت تركيا موقفًا محايدًا، لكن حينما أخذ نزاع كاراباخ منحى مغايرًا اتجهت تركيا لدعم الموقف الأذري. دعمت تركيا مطالب أذربيجان في المحافل الدولية، كما درّبت قواتها، ولكنّها لم تتدخل بشكل مباشر أبدًا في الحرب.[33] كما وقفت تركيا مع أذربيجان في تشديد الحصار على أرمينيا، ويساعد على توثيق العلاقات الأذرية التركية وشائج الدين واللغة، والذي يزيد من حساسية الدور التركي العداء بين الأرمن والأتراك بسبب اتهام الأرمن تركيا بارتكاب المذابح بحقهم في الحرب العالمية الأولى عندما ثاروا على الدولة العثمانية سنة 1915م.[34]، وهنا يرى الباحث إدوارد واكلر –الباحث بجامعة ستانفورد في الولايات المتحدة الأمريكية– أنّ التاريخ العدائي بين الأرمن والأذريين يقف في وجه آمال التسوية المستقبلية، فيجب ألاّ يغيب عنا –والكلام لواكلر– "أنّ الأرمن ينظرون إلى الأذريين على أنهم شركاء الدين الإسلامي واللغة والقومية التركيتين، ومن هم الأتراك؟ هم أولئك الذّين تسبّبوا في قتل أكثر من مليون ونصف أرمني"، بحسب ما يزعم هذا الباحث الذّي يُمثّل وجهة نظر الأرمن في النزاع، ففي كل وقت ومكان لا يمّل الأرمن من تذكير العالم "بالمذابح الأرمنية" التّي اقترفت بحقهم سنة 1915 حينما كانوا يخضعون

للدولـة العثمانية،[35] ومن شِـأن ذلك أن يؤجج نار العداء التركي الأرمنـي، ويدفع الأتراك إلى دعم الأذريين في قضية كاراباخ بحكم تلاقي المصالح، فضلًا عن الاعتبارات الإثنية.

بالإضافـة إلى ذلـك فإنّ السياسـة التركية تجاه الجمهوريات الإسـلامية في آسـيا الوسـطى عمومًا وتجاه أذربيجان وطاجيكسـتان على وجه الخصوص تتبلور في محاولة وقف امتداد نفوذ "الأصولية الشيعية الراديكالية" في هذه الجمهوريات (التّي تنشط فيها إيران بشدّة)، على أساس أنّ ذلك يمكن أن يؤثر في تركيا ذاتها وفي نموذجها السـياسي العلماني، ولاسـيما أنّ هناك أسسًا موضوعية –سـواء في الهوية أم القوى السياسـية– قد تجلب لهذا المد وتأثيراته الداخلية، فضلًا عن طموحات "تركيا العثمانية الجديدة" بحسـب ما يفضل كثيرون تسـميها كذلك[36]، أو حتّى ما يؤمن به قسم من القوى السياسية القومية التركية في الداخل (فضلًا عن مشروع "العثمانيون الجدد")، أو ما يُعرف بالمشروع الطوراني الذّي يرى أنّ جميع الشعوب التركية تنحدر من أصل طـوراني واحد: "الأتراك، والتركمان، والأذريون، والقرفيـز، والأوزبك، والطاجيك"[37] ومِن ثَـمّ يجب أن يتوحّد كل هذه الشـعوب تحت القيـادة التركية، وقد كان الرئيس التركي السـابق سـليمان ديميريـل –ومـن بعده تورغـوت أوزال– يقول إنّ رقعـة اهتمامات بـلاده تمتد من آلما أتـا عاصمة كازاخسـتان القديمـة إلى بحر الأدرياتيك، ولا شّـك أنّ وجود قاعـدة مهمة مثل أذربيجان التّي يرتبط أهلها بعرى القرابة القومية مع الأتراك إلى جانب وجود نفط بحر قزوين كانـا مـن العوامل الأساسـية التّي دخلت في حسـابات أنقرة[38]، فقد بـرزت تركيا (وجورجيا أيضًا) شريكًا إستراتيجيًّا لأذربيجان فيما يتعلق ببناء خطوط أنابيب تصدير نفط وغاز أذربيجان القزويني الذّي يقطع أراضيها. وكانت العلاقات بين باكو وأنقرة في مجال الطاقة دومًا علاقات سلسلة، كما أنّ هناك جملة من المشروعات الأذربيجانية–التركية–الغربية بمد خطوط الأنابيب من باكو إلى ميناء جيهان التركي على البحر المتوسـط، ومثل هذا المشروع –الذّي يشـبع النقص في موارد الطاقة التركية– يتوقف، في جزء منه، على المسار الذّي يأخذه النزاع.[39]

غـير أنّ بعـض المحللـين يـرون أنّ تركيا لا تسـتطيع أن تمـضي في موقفها مـن أرمينيا حتّى النهايـة، فهناك عدد من العوامل التّي تمنع تصعيد تركيا النزاع في كاراباخ، ولاسـيّما من خلال تدخلهـا العسـكري، منها: أولًا، الرغبـة في المحافظة على التوازن الداخـلي بين وجهات النظر الداخليـة التركيـة المختلفة، ثانيًا، كانت العلاقات التركية مع الغـرب دومًا عاملًا مقيدًا كبيرًا، ومـن المحتمل أن تقوّض باسـتمرار أحـد أهم أهداف تركيـا المتعلقة برغبتهـا في الانضمام إلى الاتحـاد الأوربي. وتُعـدّ روسـيا العامـل الثالث في المسـألة، التّي ستسـتجيب فـورًا للمطالب الأرمينيـة وتـرد في ذات الوقت الذّي تريد فيه تركيا تصعيـد تدخلها في النزاع. والعامل الرابع عامـل تاريخي يرتبط بالإرث الذّي خلفته أحداث 1915 الشـهيرة، التّـي يدعي الأرمن أنّهم تعرضـوا فيها إلى مذابـح جماعية من الدولة العثمانية آنذاك في أرمينيـا الغربية؛ وإنّ هذا الحدث التاريخي يُعدّ حاجزًا قويًّا في نظر الأرمن يحول دون تبني أعمال عنيفة مباشرة من تركيا ضدّهم

اليوم. خامسًا، إنّ تركيا تواجه منذ سنة 1984 أكثر الاضطرابات الكردية قوة، لذلك سيكون من الصعب عليها أن تواجه جبهة عمليات عسكرية ثانية في القوقاز. وأخيرًا، أدّى الاجتياح التركي لقبرص من قبل إلى تدهور العلاقات مع أوروبا والولايات المتحدة، وعلى الأرجح لا تريد تركيا أن تعيد تجربة مماثلة.[40]

يضيف الباحث أليسيا غولياني في مقال له عن الدور التركي في حرب كاراباخ أنّه لا يمكن لتركيا أن تنتهج سياسة مستقلة بالكامل في هذا النزاع، طالما وجب عليها التعامل مع العديد من المعوقات، بالإضافة إلى ما ذُكِر من قيود، ويضيف أنّ على القيادة التركية أولًا، باعتبارها عضوًا في الناتو أن تحترم قرارات المنظمة بالتزام الحياد. ثانيًا، إنّ حجم التبادل التجاري بين تركيا وروسيا في مستوى عال، ولا يمكن لتركيا أن تعرضه للخطر. ويحاجج الباحث أنّ مثل هذه المعوقات أدّت دورًا إيجابيًّا جزئيًّا، كمنع حدوث تصعيد في نزاع ناغورنو كاراباخ ليصل إلى نطاق حرب إقليمية واسعة النطاق قد تشمل كلًّا من تركيا وروسيا. إضافة إلى ذلك، فإنّ موسكو لا تستسيغ فكرة صعود قوة أخرى من شأنها أن تتحدى هيمنة روسيا الإقليمية، كما أنّها تدعم حليفها الإيراني ليقف كقوة إقليمية صديقة في وجه طموحات الأتراك. وبغض النظر عن المعوقات والقيود الخارجية، فعلى القادة الأتراك الجدد مراعاة تأثير العقيدة الكمالية في جملة من القوى السياسية الداخلية، فهذه العقيدة لا تسمح لتركيا بالتورط في الشؤون الداخلية للدول الأخرى. كل هذا جملة من القيود دون تصعيد عسكري تركي في الإقليم المتنازع عليه لصالح موقف حليفها الأذري، لذلك لجأت تركيا إلى وسائل أخرى في تعاملها مع تعقيدات هذا النزاع كالوسائل الديبلوماسية، رغم ذلك يحاجج الباحث أن لتركيا خبرة محدودة في الوساطة، فعدم كونها عضوًا رئيسًا في المفاوضات، وعلاقتها المتوترة مع أرمينيا يجعلان أداء تركيا في مفاوضات نزاع كاراباخ منخفضًا، ويُعدّ هذا أمرًا غير مفاجئ على الإطلاق.[41] فتركيا تعدّ أحد أعضاء مجموعة مينسك –الراعية لمفاوضات السلام– منذ إنشائها، لكن لم تكن أبدًا أحد رؤسائها، فعلاقتها التكافلية مع أذربيجان تطرح بالأساس إشكالًا حول مدى حياديتها فيما يتعلق بالنزاع هناك. فمنذ بدايات التسعينيات، وفرت تركيا مساعدات، ومشورات، وتدريبات، ودعمًا عسكريًّا كبيرًا للقوات العسكرية الأذرية. وبحكم اتفاقيتين موقعتين سنة 2011، شرع البلدان في إنتاج مشترك للبنادق وقاذفات القنابل في تركيا.

واستجابة لضغوطات باكو، في بداية سنة 2010 رعى مسؤولون أتراك تصديقًا من البرلمان التركي على بروتوكول إرساء علاقات رسمية دبلوماسية مع أرمينيا، وُقِّعت في أكتوبر/ تشرين الأول 2009 لأجل إحداث انفراج في الطريق المسدود لعملية السلام المتعلقة بناغورنو كاراباخ مع انسحاب القوات الأرمينية من سبعة مناطق من أذربيجان المجاورة لناغورنو كاراباخ.[42]

عمومًا، فقد بقي الدور التركي منخفضًا في المفاوضات المتعلقة بحل هذا النزاع، وليس من المرجح أن يؤول هذا الوضع إلى تغيّر ما. ففي الماضي كان الأمر راجعًا لقيود داخلية وأخرى خارجية في سياسة تركيا الخارجية، أمّا اليوم، فإنّ العائق الكبير يتمثّل في تدهور العلاقات التركية الأرمينية أساسًا.

إلاّ أنّ هذا العامل لا يرى فيه كل من الباحثين زارتان وتوفال عاملًا معيقًا حاسمًا بالنسبة لتركيا، فبإمكان الدولة –حسب طرحهما النظري– أن تكون وسيطًا فعّالًا حتّى وإن لم تكن طرفًا غير محايد، وهو ما يمثل بالضبط حالة تركيا الآن. يؤمن الباحثان أنّه حتّى وإن نُظِر إلى الوسيط باعتباره منحازًا لأحد الأطراف فبإمكانه أن يبقى مع ذلك وسيطًا حاسمًا لتحقيق السلام، إذا أدرك جميع الأطراف أنّ هناك فوائد يمكن أن تنتج عن تشكيل بيئة مسالمة.

وحريّ بأنقرة كذلك أن تربط الحل السلمي لنزاع ناغورنوكارابخ بحضورها الفعلي على طاولة المفاوضات. على تركيا أن تتحرك بفطنة، وتعمل على تحويل الوضع في ناغورنو كاراباخ إلى مصلحتها. يجب أن تجعل الأمر جذابًا لأرمينيا أيضًا لتكون أنقرة أحد وسطاء السلام بالنسبة لها، وذلك من خلال مزايا مهمّة على غرار اتفاقيات تبادل تجاري إقليمية، ومشروعات

طاقوية وفتح الحدود التركية-الأرمينية تُقدَّم مكافئة لأرمينيا في سبيل إيجاد حل سلمي لحرب كاراباخ. في الوقت نفسه، على أذربيجان وأرمينيا التحرك في سياستهما على أساس "تحليل التكاليف والعوائد"، وعلى أنقرة أن تدفع نحو هذا الأساس، فقرارات الطرفين لا ينبغي أن تقودهما مشاعر القومية والعداوة. على أنقرة أيضًا أن تعمل على إقناع الجميع أنّ قفقاسًا جنوبيًّا يعمّه السلام سوف يكون له آثار إيجابية على الجميع، على صعيد التجارة مثلًا والتعاون الإقليمي، كما أنّ هذا الأمر من شأنه أيضًا أن يحسّن وضعية الدولة في الساحة الدولية.[43]

الحسابات الإيرانية

حافظت أرمينيا والجمهورية الإسلامية الإيرانية على علاقات عميقة بينهما منذ سقوط الاتحاد السوفياتي. وعلى الرغم من عدم وجود علاقات طبيعية، فقد تسبب التنافس بين إيران وتركيا وانعكاساته على أذربيجان بهذا "التحالف الإستراتيجي" بين يريفان وطهران. منذ سنة 1991 إلى غاية اليوم، حاولت إيران تقويض استقلال أذربيجان بطرق مختلفة، على سبيل المثال، ممارسة ضغوطات على الأقلية الأذرية التّي تقطن شمال إيران، وعرقلة مشروعات أنابيب الطاقة الغربية، وانتهاك المجال الجوي الأذري، وتقديم الدعم لأرمينيا في نزاع ناغورنو كاراباخ.

إنّ التعاون الإيراني-الأرميني مسألة لافتة حقًّا إذا أخذنا في الاعتبار أنّ أرمينيا دولة مسيحية بينما إيران دولة مسلمة. في الواقع حتّى شعب أذربيجان يتبعون نفس مذهب إيران الديني؛ أي المذهب الشيعي. إن هناك تفسيرًا ما لهذه الحالة الغريبة.

بداية، ينبغي ألا ننسى أنّ أذربيجان تتبع النموذج الكمالي العلماني بعدما رفضت النموذج الخميني (وبخاصة أنّ شعبها ذو أصول تركية مثلما ذكرنا)، إنّها تنظر إلى نفسها على أنها دولة أوروبية تدعم جميع المبادرات الغربية في المنطقة، نحو مشروع الشراكة من أجل السلام، ومشروع خط باكو-تبليسي-جيهان النفطي، أو مجموعة غوام، بينما تَعدّ إيران الولايات المتحدة بمثابة "الشيطان الأكبر" وحليفتها إسرائيل "الشيطان الأصغر". لهذا السبب فإنّ السياسة الخارجية الأذرية المؤيدة للغرب منذ سنة 1991 تعقّد دومًا العلاقات الأذرية-الإيرانية وتجعلها صعبة.[44]

لذلك فقد عرفت العلاقات الأذرية- الإيرانية خلال العقدين الماضيين عدم ثقة وشكًّا متبادلًا وعميقًا، أما أذربيجان فتخشى من محاولات إيران تصدير الثورة الإ له بالنشاط، وكذلك أقلية تاليش بتهمة التجسس لصالح إيران على أراضيها. وفي المقابل تشتبه إيران في علاقات الدفاع القائمة بين أذربيجان وإسرائيل، كما تعدّ الأقلية الأذرية الكبيرة على أراضيها تشكل طابورًا خامسًا محتملًا قد يعمل لصالح أذربيجان،[45] في ظل وجود نحو 20 مليون إيراني ينتمون إلى أصول أذربيجانية في شمال إيران، بحسب ادعاء المعارضة الأذرية في

إيـران، بينما يقدرها آخرون بـ: 6.5 مليون نسـمة في شـمال إيران وبـين 10–15 مليون أذري داخـل كل إيـران، وهؤلاء يحلمون بالوحدة مع بقية أذربيجان المقسـمة، ومن ثمّ فالاسـتقرار في أذربيجـان يمكـن أن يسـهم في تنميـة الحلم الأذربيجـاني "أذربيجان الكـبرى"، وهو ما قد يمسّ بالتمسـك الداخلي لمجتمع التعددية العرقية والقومية في إيران،[46] هذا أحد أسـباب دعم الإيرانيين للأرمن في الصراع الكاراباخي.

حافظت أرمينيا والجمهورية الإسـلامية الإيرانيـة على علاقات عميقة بينهما منذ سـقوط الاتحاد السـوفياتي. وعلى الرغم من عدم وجود علاقات طبيعية، فقد تسبب التنافس بين إيران وتركيا وانعكاساته على أذربيجان بهذا "التحالف الإسـتراتيجي" بين يريفان وطهران

كل هـذا يقـود إلى أخطاء إدراكيـة بين الطرفين تجعلهـما يبالغان في وجـود تهديد متصـور قادم من الطـرف الآخـر، تعـزّزه خطابـات ردود الأفعـال بين الجانبين، فعلى سـبيل المثال تصاعد التوتر سـنة 2012 حينـما اتهمـت إيـران أذربيجـان بمسـاعدة إسرائيل في اغتيال علماء إيرانيين، وتسـهيل إمكانية إجراء ضربات جوية عسـكرية إسرائيلية–أمريكية ضـدّ منشـآتها النوويـة، بينما نفـت الحكومـة الأذرية ذلك بشـدة، وأكدّت بشـكل متكـرّر أنّه وبالرغـم مـن التهديد الذّي يفرضه تخصيب إيران لليورانيوم في إطار برنامجها النووي فإنّها لن تسـمح أبدًا بأن تُستخدم أراضيها لأغراض عسـكرية للهجوم على إيران، وقد استدعت إيران سفيرها من باكو في مايو 2012 بعد أشهر من تبادل الاتهامات المريرة بين البلدين، تحت ذريعة التدخل في شؤون الدولة الأخرى.[47]

كل هذه العوامل تفسر سبب دعم إيران لأرمينيا بدلًا من أذربيجان.

واستنادًا إلى ذلك اتبعت إيران إستراتيجية متكاملة تقوم على تقديم دعم شامل لأرمينيا في نزاعها ضدّ أذربيجان على هذا النحو:

أولاً، تزويد إيران أرمينيا بالأسـلحة لمساعدة شعب كاراباخ الأرمني الذّي يعيش في ذلك الإقليم، في قتاله ضدّ الشعب الأذري الذّي يعيش هناك أيضًا.

ثانيـاً، إمداد إيران أرمينيا بالطاقة، علمًا أن إيـران هي مورد أرمينيا الوحيد للطاقة، وعندما عملـت أذربيجـان وتركيـا على عـزل أرمينيا إثر نـزاع كاراباخ، أرسـلت إيـران عونًا للأرمن لمسـاعدتهم عـلى البقـاء. إذ وفّـرت إيران الغـاز ومواقـد الكيروزيـن لأرمينيا في أثنـاء حرب (1992–1994)، وبذلـك نجـت أرمينيـا من الحصـار التركي بفضل المسـاعدات الإيرانية. ولهذه الأسباب، يُحكّم على إيران بأنها ليست وسيطًا محايدًا في نزاع ناغورنو كاراباخ.

ثالثًـا، خـلال الحقبة السـوفياتية عمل القوقاز بوصفـه نظامًا موحدًا متكامـلًا، حازت فيه أرمينيـا معظـم الصناعات، ووفرّت فيها أذربيجـان موارد الطاقة، بينما كانـت جورجيا مركزًا سياحيًّا وزراعيًّا بامتياز، وحينما سقط الاتحاد السوفياتي، تغيّرت العلاقات الاقتصادية للقوقاز

بشكل دراماتيكي: فعانت جورجيا أزمة اقتصادية رهيبة، وشرعت أذربيجان في تصدير النفط والغاز، بينما أرست أرمينيا علاقات مقربة مع جمهورية إيران الإسلامية التي تعّد الوقت الحاضر الشريك التجاري الثالث لأرمينيا مباشرة بعد روسيا وألمانيا. وحاولت إيران إضعاف أذربيجان وتقوية أرمينيا عبر المساعدات الاقتصادية، وتقوية علاقات التعاون بين البلدين.

رابعًا، تعّد أذربيجان من أهم منتجي النفط في العالم، مع ذلك لا تنتمي أذربيجان إلى منظمة الأوبك، وهذا يجعلها أكثر جاذبية للاستثمارات الأجنبية. وتعّد أذربيجان أيضًا من أهم منافسي إيران في مجال الطاقة، لهذه الأسباب، تحافظ إيران على شيء من الخلافات مع أذربيجان بهدف السيطرة على حقول النفط في بحر قزوين.[48]

لكن يرى بعض المحللين في هذا الصدد أنّ "دبلوماسية النفط" قد تغيِّر من سياسة إيران، فالتعاون والتنسيق اللذان تُجبَر عليهما إيران مع دول بحر قزوين –وأذربيجان من بينها– حول اقتسام الثروة يمكنهما تلطيف الموقف مع تكرار الزيارات الرسمية مع قادة الدول المطلة على هذا البحر.[49] وبحلول شهر مارس/ آذار 2016 شرعت إيران بقوة في توقيع اتفاقيات اقتصادية مهمّة؛ بل حتّى عسكرية، وأخرى متعلقة بتقاسم الموارد، إحداها توصَّلت إلى ربط خطوط السكك الحديدية، بهدف ربط الأراضي الروسية–الإيرانية–الأذرية. هذا في حدّ ذاته يمكن أن يكون خطوة مهمّة تجاه التكامل الأوراسي، الذّي سيُضعف نفوذ كل من تركيا والناتو في التدخل في شؤون المنطقة.

عملت إيران من جهتها أيضًا على تطوير علاقات عسكرية جيدة مع أذربيجان، ففي أبريل/نيسان 2015 أعربت إيران وأذربيجان عن قرارهما في تشكيل لجنة دفاع مشتركة: وهذه خطوة من شأنها أن تؤشر إلى وجود تحول جيوبوليتيكي واضح في جنوب القوقاز

وإذا نظرنا إلى السياق الإقليمي الأوسع لزيارة الرئيس الأذري إلى إيران مؤخرًا، فسوف نلاحظ وجود تطورين مهمّين لدور روسيا ومصالحها الأكثر من مصالح إيران. فروسيا تستخدم محادثات النقل الأذرية–الإيرانية (29 فبراير 2016) ذريعة لاقتراح عقد لقاء ثلاثي لوزراء خارجية هذه البلدان، يستهدف تهميش تركيا بالأساس. وهكذا يبدو من خلال النظر إلى الأزمة التّي تعيشها العلاقات الروسية–التركية اليوم، إلى جانب قلق إيران نفسه تجاه أنقرة– أنّ هذه التطورات ربما من شأنها أن تكون مبادرة مشتركة من موسكو وطهران تهدف إلى إضعاف نشاط تركيا الدبلوماسي في القوقاز الجنوبي، وليس لباكو فرص كبيرة للمناورة في هذا الصدد.

عملت إيران من جهتها أيضًا على تطوير علاقات عسكرية جيدة مع أذربيجان، ففي أبريل/ نيسان 2015 أعربت إيران وأذربيجان عن قرارهما في تشكيل لجنة دفاع مشتركة: وهذه خطوة من شأنها أن تؤشر إلى وجود تحول جيوبوليتيكي واضح في جنوب القوقاز. وفي مايو 2015، أعرب نائب رئيس العلاقات الخارجية في الأمانة العامة الخاضعة للمرشد

الأعلى للجمهورية الإسلامية الإيرانية السيد محسن قومي عن استعداد بلاده لدعم أذربيجان، وعبّر لرئيس اللجنة الحكومية الأذرية مبرز كوربانلي الّذي زار إيران للعمل مع المنظمات الدينية- عن استعداد بلاده (لدعم أذربيجان في أي وقت"، كل ذلك إذا حدث من شأنه أن يضع تركيا على هامش التنافس.[50]

غير أنّنا نستبعد حدوث هذا الأمر، إذ ما هي إلاّ مناورات تقيس مدى استجابة الأطراف لأي تغيير قد يحدث في الأفق، كما أنّ جميع الأطراف بحاجة إلى تفعيل علاقات تقوم على ترجيح المنافع والمكاسب الربحية الخاصة بطريقة براغماتية محضة، التّي قد تنجم عن تحريك أي ركود في علاقاتها الثنائية، وتحجّم أي تصعيد محتمل. علينا أن نتذكر أيضًا أنّ إقليم القوقاز ليس إقليمًا معزولًا عن بقية الأقاليم المجاورة التّي تشهد بدورها أزمات لا تنتهي، تتداخل فيها نفس القوى الإقليمية المتورطة في نزاع ناغورنو كاراباخ، وهذا من شأنه أن يعّقد مسار المفاوضات بشأنه، ويجعلها مرتبطة بالتطورات الطارئة في بقية الأقاليم، وعلى رأسها إقليم القوقاز الشمالي بأزماته الإثنية الكامنة مع روسيا، وكذا إقليم "الشرق الأوسط" الملغم بالأزمات والنزاعات والحروب، كالوضع الهش في العراق و"الحرب الأهلية السورية المدوّلة" على وجه أخص، لذلك فمن المرجح أن تبقى إيران رغم كل شيء حريصة على استمرار علاقات جيدة مع روسيا –حليفة أرمينيا- ولاسيّما أنّ أي تغير في موقفها من قضية كاراباخ لصالح أذربيجان –أحد خصوم روسيا وحليفة خصومها التقليديين الأتراك- قد يجلب عليها نقمة روسية هي في غنى عنها اليوم، ولاسيّما أنّ روسيا تعدّ اليوم أحد أصدقاء إيران وداعمها الدولي الأول في قضايا إقليمية عدّة، وكان الملف النووي الإيراني من قبل على رأسها، ولا تزال قضايا أخرى إقليمية تحتاج إلى استمرار مثل هذا التحالف القوي في مواجهة المصالح والضغوطات الغربية-الأمريكية في كل الإقليم. وفي المقابل تحتاج روسيا إلى حليف قوي كإيران في مواجهتها للتحالف التركي-الأمريكي-الخليجي في سوريا، كما تحتاج إلى أرمينيا أيضًا "كحليف مقدس" على حدّ وصف ملهم الجيوبوليتيكا الروسي ألكسندر دوغين، في قوقاز تكاد تهيمن على مقدّراته القوى الأطلسية الجديدة الساعية لتحجيم البرّ الأوراسي إلى الداخل.

بناءً على ما سبق نلاحظ أنّ نزاع ناغورنوكاراباخ يُعدّ أحد النزاعات المتوارثة عن حقب قديمة وظروف محلية إقليمية، بل ودولية مختلفة عمّا نعيشه اليوم، مع ذلك فإنّ النزاع متواصل إلى حدّ الساعة، ولا يزال يأخذ تقريبًا نفس الحدّة التاريخية المتوارثة بين الفينة والأخرى، وقد شهد الشهر الأخير معارك طاحنة جديدة على حدود الإقليم بين القوات الأرمنية والأذرية أسفرت عن مقتل جنود من الطرفين، سعت فيها روسيا والولايات المتحدة إلى تهدئة الوضع المتأزم، وهذا يدفعنا مجددًا إلى المراهنة على إمكانية استمرار النزاع لمدة أطول، نظرًا لغياب أي أفق سلمي يحقق رضى الطرفين اللذّين دخلا لعبة صفرية غير قابلة للتساوم، كما أنّ تأزم الوضع الإقليمي المحيط بالنزاع يقوي هذه المحاججة أكثر، فأطرافه الإقليمية: تركيا،

وإيران وروسيا تخوض اليوم ضدّ بعضها بعضًا أحد أكثر المواجهات السياسية والعسكرية تأزمًا في ساحات مجاورة، أبرزها الساحة السورية، الأمر الذّي قد يرشح نزاع كاراباخ إلى أن يصير ملفًّا للمساومة والتسويات الإقليمية من جديد بين هذه القوى، ويربط مصيره بملفات إقليمية أخرى جديدة، على رأسها الملف السوري بلا شك. أخيرًا نؤكد أنّه من الصعب التنبؤ بما سينتهي إليه هذا النزاع، لكنّنا حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية أن نقدّم بعضًا من المؤشرات والمعالم المساعدة على فهم مسار النزاع وأبعاده المختلفة.

هوامش الدراسة

1. عبد الله صالح، ناغورنو كاراباخ، الصراع بين الجغرافيا والهوية القومية، "مجلة السياسة الدولية"، العدد 136، يناير 1999، ص177.
2. محمد عبد العاطي، ناغورنو كاراباخ: جذور الصراع وعوائق التسوية... سيناريوهات الحل http://WWW.aljazeera.Net/studies
3. Philip Gamaghelyan, Intractability of the Nagorno-Karabakh confli t: A myth or a reality, University for peace and confli t, Monitor, P: 04-05. http://www.monitor.upeace.org/documents/intractability.pdf
4. محمد عبد العاطي، ناغورنو كاراباخ، موقع سبق ذكره.
5. عمارة نوفل، الأهمية الجيوإستراتيجية لجنوب القوقاز وتأثيرها على أمن واستقرار دول المنطقة، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر 2005-2006، ص20.
6. سركيس كيفورك بورنسوزيان وآخرون، الصهيونية والبانتوركية وقضية غاراباغ، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، الطبعة الأولى، 2002، بيروت-لبنان، ص139.
7. نبذة عن قره باغ والنزاع الأرميني-الأذربيجاني http://WWW.rtarabic.Com.
8. سركيس كيفورك بورنيوزيان وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص140.
9. عمارة نوفل، مرجع سبق ذكره، ص20.
10. مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية والجغرافية، الشركة العالمية للموسوعات، الجزء الأول، الطبعة الثالثة 2005، بيروت-لبنان، ص240.
11. سركيس كيفورك بورنيوزيان وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص140.
12. نبذة عن قره باغ والنزاع الأرميني-الأذربيجاني، موقع سبق ذكره.
13. سركيس كيفورك بورنسوزيان وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص140.
14. عمارة نوفل، مرجع سبق ذكره، ص21.
15. سركيس كيفورك بورنسوزيان وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص144.
16. عمارة نوفل، مرجع سبق ذكره، ص23-24.
17. محمد عبد العاطي، موقع سبق ذكره.
18. عبد الله صالح، مرجع سبق ذكره، ص177.
19. سركيس كيفورك بورنيوزيان وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص148.
20. أحمد وهبان، الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر، دراسة في الأقليات والجماعات والحركات العرقية، الدار الجامعية الجديدة للنشر، 1999، الإسكندرية-مصر، ص335-336.
21. Elizabeth Fuller, Azerbaijan's Foreign Policy and the Nagorno-Karabakh Confli t, Istituto Aff ri Internazionali, IAI WORKING PAPERS 13 | 12 – April 2013, p: 03. http://www.iai.it/sites/default/files/iaiwp1312.pdf

22. نبذة عن قره باغ والنزاع الأرمني-الأذربيجاني، موقع سبق ذكره.
23. أحمد وهبان، مرجع سبق ذكره، ص338-339.
24. مسعود الخوند، مرجع سبق ذكره، ص241.
25. Elizabeth Fuller, op.cit, p: 02.
26. نبذة عن قره باغ والنزاع الأرميني-الأذربيجاني، موقع سبق ذكره.
27. عمارة نوفل، مرجع سبق ذكره، ص30.
28. نبذة عن قره باغ والنزاع الأرميني-الأذربيجاني، موقع سبق ذكره.
29. مسعود الخوند، مرجع سبق ذكره، ص241.
30. نبذة عن قره باغ والنزاع الأرميني-الأذربيجاني، موقع سبق ذكره.
31. Elizabeth Fuller, op.cit, p: 03.
32. Ibid, p: 07.
33. Alessia Giuliani, Turkey's role in the Nagorno Karabakh war: a potential resource for peace, Caucasus Edition, Jornal for confli t transformation, Monday, July 15, 2013. http://caucasusedition.net/analysis/turkeys-role-in-the-nagorno-karabakh-war-a-potential-resource-for-peace/
34. محمد عبد العاطي، موقع سبق ذكره.
35. صالح يحيى الشاعري، تسوية النزاعات الدولية سلميًّا، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، 2006، القاهرة-مصر، ص361.
36. صالح عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص178.
37. سركيس كيفورك بورنسوزيان وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص142.
38. مسعود الخوند، مرجع سبق ذكره، ص242.
39. Elizabeth Fuller, op.cit, p: 07-08.
40. Lusine Avanesyan, Turkey's Policy toward South Caucasus: The cases of NagornoKarabakh and Abkhazia Confli ts, A master aster essay submitted to the faculty of graduate school of political science and international aff irs for partial fllfillement of the degree of masters of art, American University of Armenia, p: 30-31. https://dspace.aua.am/xmlui/bitstream/handle/123456789/613/Lusine_Avanesyan.pdf?sequence=1 .
41. Alessia Giuliani, op.cit.
42. Elizabeth Fuller, op.cit, p: 07-08.
43. Alessia Giuliani, op.cit.
44. Alberto Priego, Armenia-Iran relations and their implications for Nagorno-Karabakh, Comentarios UNISCI No. 1, Madrid 19th June 2007, p: 01-02. https://www.ucm.es/data/cont/media/www/pag-72542/1comentario.pdf
45. Elizabeth Fuller, op.cit, p: 07 .
46. عبد الله صالح، مرجع سبق ذكره، ص178.
47. Elizabeth Fuller, op.cit, p: 07.
48. Alberto Priego, op.cit, p: 01-02.
49. صالح يحيى الشاعري، مرجع سبق ذكره، ص178.
50. Corey Schink & Mike Tutundjian, Armenia vs Azerbaijan, East vs West: Nagorno-Karabakh crisis and the NATO-Israeli connection, Sott.net, Wed, 06 Apr 2016. https://www.sott.net/article/315892-Armenia-vs-Azerbaijan-East-vs-West-Nagorno-Karabakh-crisis-and-the-NATO-Israeli-connection

المصـــادر والمراجـــع

أ- المراجع باللغة العربية

1. سركيس كيفورك بورنسوزيان وآخرون. الصهيونية والبلاتوركية وقضية غاراباغ. بيسان للنشر والتوزيع والإعلام. الطبعة الأولى. 2002. بيروت-لبنان.
2. أحمد وهبان. الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر. دراسة في الأقليات والجماعات والحركات العرقية. الدار الجامعية الجديدة للنشر. 1999. الإسكندرية-مصر.
3. صالح يحيى الشاعري. تسوية النزاعات الدولية سلميًّا. مكتبة مدبولي. الطبعة الأولى. 2006. القاهرة-مصر.
4. مسعود الخوند. الموسوعة التاريخية والجغرافية. الشركة العالمية للموسوعات. الجزء الأول. الطبعة الثالثة 2005. بيروت-لبنان.
5. عبد الله صالح. ناغورنوكاراباخ. الصراع بين الجغرافيا والهوية القومية. مجلة السياسة الدولية. العدد 136. يناير 1999.
6. عمارة نوفل. الأهمية الجيوإستراتيجية لجنوب القوقاز وتأثيرها على أمن واستقرار دول المنطقة. مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية. جامعة الجزائر. 2005-2006.
7. محمد عبد العاطي. ناغورنوكاراباخ: جذور الصراع وعوائق التسوية... سيناريوهات الحل .http://WWW aljazeera.Net/studies
8. نبذة عن قره باغ والنزاع الأرميني-الأذربيجاني.
   http://WWW.rtarabic.Com
9. قره باغ. موسوعة المعرفة:
   http://www.marefa.org/index.php/%D982%%D8%B1%D8%A9_%D8%A8%D8%A7%D8%BA

ب- المراجع باللغة الانجليزية

10. Philip Gamaghelyan, Intractability of the Nagorno-Karabakh confli t: A myth or a reality, University for peace and confli t, Monitor, P: 0405-.
    http://www.monitor.upeace.org/documents/intractability.pdf
11. Elizabeth Fuller, Azerbaijan's Foreign Policy and the Nagorno-Karabakh Confli t, Istituto Aff ri Internazionali, IAI WORKING PAPERS 13 | 12 – April 2013, p: 03.
    http://www.iai.it/sites/default/files/iaiwp1312.pdf
12. Alessia Giuliani, Turkey's role in the Nagorno Karabakh war: a potential resource for peace, Caucasus Edition, Jornal for confli t transformation, Monday, July 15, 2013.
    http://caucasusedition.net/analysis/turkeys-role-in-the-nagorno-karabakh-war-a-potential-resource-for-peace/

13. Lusine Avanesyan, Turkey's Policy toward South Caucasus: The cases of NagornoKarabakh and Abkhazia Confli ts, A master aster essay submitted to the faculty of graduate school of political science and international aff irs for partial fllfillement of the degree of masters of art, American University of Armenia, p: 3031-.
https: / /dspace.aua.am /xmlui /bitstream /handle /123456789613 / /Lusine_ Avanesyan.pdf?sequence=1
14. Alberto Priego Armenia–Iran relations and their implications for Nagorno–Karabakh Comentarios UNISCI No. 1 Madrid 19th June 2007 p: 0102–.
https: / /www.ucm.es /data /cont /media /www /pag–725421 /comentario.pdf
15. Corey Schink & Mike Tutundjian Armenia vs Azerbaijan East vs West: Nagorno–Karabakh crisis and the NATO–Israeli connection Sott.net Wed 06 Apr 2016.
https: / /www.sott.net /article /315892–Armenia–vs–Azerbaijan–East–vs–West–Nagorno–Karabakh–crisis–and–the–NATO–Israeli–connection